

البنية الحجاجية للخطابات القدسية الأحاديث الموسومة بالعبودية أنموذجا دراسة تداولية

الباحث: محمد الصالح أنصر. — جامعة باتنة 1.

أ.د/ بلقاسم دفة. — جامعة باتنة 1.

الملخص:

يعد الخطاب الديني أثرى الخطابات مادة، لدراسة الحجاج، في بنيته، وآلياته، فهو خطاب يتناول وجود الإنسان، فكرا وعقيدة؛ وروحا وأخلاقا؛ ومجتمعاً وتواصلا. والأحاديث القدسية، أحد أنواع الخطاب الديني، التي امتازت عن غيرها بصيغتها اللغوية، وبنيتهما التخاطبية. وفي هذا الصدد يحاول الباحث الكشف عن تشكيلات البنية الحجاجية للخطاب، وتحليلها من منظور تداولي. ينفذ إلى مكوناتها التداولية، عبر مستوياتها المنطقية، واللغوية. بهدف اختبار التكامل والانسجام بين الثلاثة، دون إرهاب بنية الخطاب ولا تشويهها.

الكلمات المفاتيحية: خطاب، حجاج، بنية، تداولية، إقناع، قوة إنجازية.

Abstract

The religious discourse is considered to be one of the richest discourses in matter of content to study the argumentation in its structure and in its verses. It deals with the human existence: the thought, the creed, the spirit, the ethics, the society and the communication.

The Hadith Qudsy is a religious discourse that is distinguishable from other discourses by its linguistic formula and its conversational structure.

In this regard, the researcher tries to disclose the argumentative structure of the discourse to analyze it pragmatically to get through its components through the linguistic level and the rational one in order to examine the complementarity and the coherence between the three without overburdening the discourse structure neither deforming it.

Key words: *discourse, argumentation, structure, pragmatism, persuasion, strength in performing.*

مقدمة:

يتنزل الحديث القدسي منزلة بين القرآن الكريم والحديث النبوي، فهو ليس في مستوى أسلوبية القرآن، ولا هو يحاكي خطابية الحديث النبوي؛ وبالتالي فهو يتخذ شكلا وبنية مثيرة للمساءلة اللغوية، فالتداولية، فالحجاجية، تدفع إلى طرح الإشكالية التالية:

ما مرتكزات الخطاب القدسي في بناء الحجاج و صناعة الإقناع ؟
ولتفكيك عناصر هذه الإشكالية، ومعالجتها بالتحليل، بدا المنهج التداولي الأنسب لتحقيق ذلك، عبر ملامسته لجوانب الإشكالية وموضوعها، من منطلق أنه منهج يهتم بمنتج الخطاب كيف ينتجه، وبيئته الخطاب كيف تسهم في بناءه وفهمه؛ ثم بالملتقي كيف يفسره فيعمل به.

والبحث إذ يتأسس لمعالجة هذه الإشكالية؛ فإنه لا ينطلق من فراغ، ولا يبدأ من الصفر، إذ يستند على عدد مهم من مراجع التداولية وتحليل الخطاب، ويبني على دراسات عديدة، تناولت الحديث النبوي سواء رسائل ماجستير أو دكتوراه.

ولعل ميزة هذه الدراسة، اختصاصها بالأحاديث القدسية تحديدا، وبتلك التي خاطبت المسلم بلفظ العبودية مفردا "عبدي" أو مجتمعا ب "عبادي". وتلك خصيصة تعد عاملا توجيها، يجعل مجال الدراسة منضبط الحدود. واضح الأهداف، ويمكن تلخيص هذه الأهداف في:

- معرفة أليات اشتغال الحجاج على مستوى الحديث القدسي.
 - دراسة دور بنيته المنطقية، واللغوية في الكفاءة الإنتاجية.
 - الكشف عن أثر الميزة الشرعية للحديث القدسي على كفاءته الإنجازية.
- وللوصول إلى الأهداف المسطرة، اتبعت الخطة لتالية:

- 1- مفهوم الخطاب.
- 2- تعريف الحجاج.
- 3- دراسة الخطاب الحجاجي.
- 3-1 المنهج والنظرية .
- 3-2 الدراسة التحليلية للبنية الحجاجية للخطاب القدسي.
- 3-2-1 المستوى المنطقي.
- 3-2-2 المستوى اللغوي والتداولي.

1. مفهوم الخطاب:

1.1 نفة

لقد دلت مفردة الخطاب في موروثنا العربي على التفاعل اللغوي، والمعرفي بين غير طرف، فالخطاب: "مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان... والمخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة"⁽¹⁾.

وفي معجم مقاييس اللغة "خطب) الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين، يقال خاطبه يُخاطبه خطاباً، ... والخطب: الأمرُ يقع؛ وإنما سُمِّيَ بذلك لما يقع فيه من التخاطب المراجعة..."

وأما الأصل الآخر فاختلاف لونيْن. قال الفراء: الخطباء: الأتان التي لها خطُّ أسودُّ على منتهها. والحمار الذكر أخطبُ. والأخطب: طائر؛ ولعله يختلف عليه لوانان. قال:

(1) ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت- لبنان، مج 1، ص 359-361. مادة(خطب)

إذا الأخطبُ الدَّاعي على الدَّوْح صرَّصراً⁽¹⁾»⁽²⁾.

يبدو أن المعنى اللغوي لـ (خطاب) في المعاجم العربية ينطوي على دلالة مركزية، تتبني على افتراض وجود طرفين -حسيين أو معنويين - منخرطين في تشارك ما، يقوم على الأخذ والرد كما في (مراجعة الكلام)، أو على التناوب والتداول كما (في اختلاف اللونين)، وبدرجة متقدمة على التخاصم والتنازع كما (في فصل الخطاب).

والخطاب بهذه المعاني يكاد يتطابق مع المعنى اللغوي الغربي، بل هو أكثر وضوحاً ودلالة على المفهوم الاصطلاحي الحديث. ففيما يرتبط الخطاب عند العرب بتداول الكلام، نجده في المعجم الغربي مرتبطاً أكثر بما هو محسوس، " فإذا عدنا إلى الموسوعة العالمية (1990: 1025) نجد فيها ربطاً بين الكلمة الإنجليزية discours والكلمة اللاتينية discursus التي كانت تعني " جرى هنا وهناك ". هذه الكلمة مأخوذة من الفعل اللاتيني discurrere⁽³⁾.

ثم انتقل من معنى " جرى هنا وهناك " إلى معنى " تكلم طويلاً " ⁽⁴⁾.

2.1 الخطاب اصطلاحاً:

تعددت التعريفات التي قدمت للخطاب بتعدد التوجهات النظرية، وأهداف التحليل، لكن عموماً يمكن تصنيفها، حسب ما جاء في معجم دوبوا كالاتي: ⁽¹⁾

(1) صدره كما اللسان: ولا أنتني من طيرة عن مريرة.

(2) ابن فارس: أحمد بن زكريا بن الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979، ج2، ص198، مادة(خطب).

(3) العرابي ربيعة، " الحد بين النص والخطاب "، علامات، العدد 33، ص 33.

(4) المرجع نفسه، ص 34.

1- الخطاب هو ممارسة للغة.

2- الخطاب وحدة توازي الجملة أو تفوقها. إنه يتكون من متواليات

تشكل خطابا له بداية ونهاية، وهو بهذا المعنى مرادف للفظ.

3- في البلاغة يعد الخطاب متواليات شفوية موجهة للإقناع والتأثير.

4- في اللسانيات يعد الخطاب لفظا يفوق الجملة منظورا إليها من

حيث قواعد تسلسلا.

ويعرف المتوكل الخطاب بكونه " كل تعبير لغوي أيا كان حجمه، أنتج

في مقام معين، قصد القيام بغرض تواصلي معين " (2) أي: أن ربط الخطاب

بالمسياق التواصلي يؤدي إلى اعتبار معيار الكم معيارا ثانويا.

ومن خلال ما سبق من تعريفات، نلاحظ حضور معان من قبيل؛ الإقناع

والتأثير؛ الاستعمال والتواصل، وهذه المعاني بدورها نجد لها اتصالا قويا

بمفهوم تداولي مركزي هو الحجاج، فما هو الحجاج؟

2 تعريف الحجاج:

إن الحجاج جزء من يومياتنا، فهو يمتد إلى جميع أنماط الخطاب

ويتمظهر بأشكال مختلفة. " إذ نصادفه في الحوارات بين الأشخاص، ...

وننلمسه في النصوص ... ومع ذلك، فإن الحجاج كطبيعة، وعلاقات،

وشروط، وآليات اشتغال، يكاد يكون مجهولا " (3)

(1) J. Dubois et al: Dictionnaire de linguistique. Imprimerai bergère «Nancy-France» ed 1980, pp 156-158.

(2) أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية بنية الخطاب من الجملة إلى النص، د ط، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2001، ص 17.

(3) محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ط 1، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2005، ص 7.

في الحقيقة، ومهما بلغ الغموض واللبس بمفهوم الحجاج، فبالإمكان مقارنته؛ أولاً بالاتكاء على جذوره اللغوية، التي استمد منها بنيته المعرفية، ورسم من خلالها حدوده الإجرائية.

2.2 الحجاج لغة

في مقاييس اللغة لابن فارس يعود الأصل اللغوي للجذر (ح ج ج) إلى معانٍ أربعة وهي: (1)

1- القصد: وكلّ قصد حج، ومن الباب: المحجّة، وهي جادة الطريق، وممكن أن تكون الحجّة مشتقة من هذا، لأنها تُقصد، أو بها الحقّ المطلوب، يقال حاجبتُ فلانا فحججته أي غلبته بالحجّة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة، والجمع حُججٌ، والمصدر الحجاج.

2- الحجّة: وهي السنّة.

3- الحجاج: وهو العظم المستدير حول العين.

4- الحججبة: النكوص، يقال: حملوا علينا ثمّ حجججوا".

إن استخلاص أهم الدلالات المعجمية لجذر (ح ج ج) وترتيبها، من شأنها أن تكشف عن العلاقة الثاوية خلف تلك الدلالات، وعن مدى اتصالها بموضوع الحجاج بأبعاده العلمية.

وفي هذا السياق الذي يستهدف بناء مفهوم للحجاج، من المهم جدا الوقوف على دلالة البنية الصرفية لـ "الحجاج"، إذ أن كلمة حجاج الدالة على معنى المشاركة في تقديم الحجج، وعلى مقابلة الحجّة بالحجة، مؤهلة أكثر من

(1) ابن فارس، م، س، ج، 2، ص 29-31. مادة (حجج)،

كلمة الاستدلال لتؤدي دورا مهما جدا، تقوم عليه النظرية الحديثة (L'argumentation) وهو مفهوم المناقشة والحوار⁽¹⁾.

فالحجاج إذن عملية تفاعلية. تنطلق من الاختلاف لتحقيق الائتلاف، في الفكرة و التصور؛ ليجعل القضية محور النقاش أوضح وأظهر.

ومن هنا كانت لفظة " لحجاج " تقابل في الفرنسية كلمة (Argumentation) المأخوذة من " كلمة (Argument) التي تعود إلى الفعل اللاتيني Arguere وتعني جعل الشيء واضحا ولامعا وظاهرا، وهي بدورها من جذر إغريقي (argues) ويعني أبيض لامعا⁽²⁾،

2.2 الحجاج اصطلاحا:

ليس مصطلح الحجاج بأحسن حال من مصطلحات عدة في شتى ميادين اللغة؛ لذا "تعددت تعريفات الحجاج (Argumentation) من حقل معرفي لآخر، وحسب العلوم التي يوظف داخلها، أساسا أو عرضا، فهو يمثل تلك الخطوات، التي يحاول بها الشخص أو الجماعة أن نقود المستمع إلى تبني موقف معين، وذلك بالاعتماد على تمثيلات ذهنية مجردة أو حسيّة ملموسة، أو على قضايا جازمة، تهدف في الأساس إلى البرهنة على صلاحية رأي أو مشروعيته"⁽³⁾.

(1) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط 02، دار الفارابي، 2007، ص 09.

(2) عبد الرزاق بنور، جدل حول الخطابة والحجاج، د ط، دار العربية للكتاب، 2008، ص 25.

(3) ينظر: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ط: 1، 2007م، ص: 82 وما بعدها.

والحجاج عند برلمان Perlman و تيتيكا Tyteca طائفة من تقنيات الخطاب، التي تقصد إلى استمالة المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم، أو زيادة درجة تلك الاستمالة⁽¹⁾.

أما باتريك شارودو فينظر إلى الحجاج على أنه:

لا يمكن أن ينحصر في عملية الوسم لجمل متتابعة أو لأقوال موصولة بروابط منطقية، فقد يكون التتابع والربط ضمنى مضمّر غير جلي ظاهر، والأجدى من ذلك؛ هو التحقق من وجود العناصر الأساسية التي يتوقف عليها وجود (حجاج) وهي ثلاثة:

• خبر عن العالم يجب أن يمثل إشكالا بالنسبة إلى شخص ما من حيث مشروعيته.

• فاعل يلتزم بهذه الإشكالية (قناعة) وينشئ برهنة لمحاولة تأسيس حقيقة لهذا الخبر.

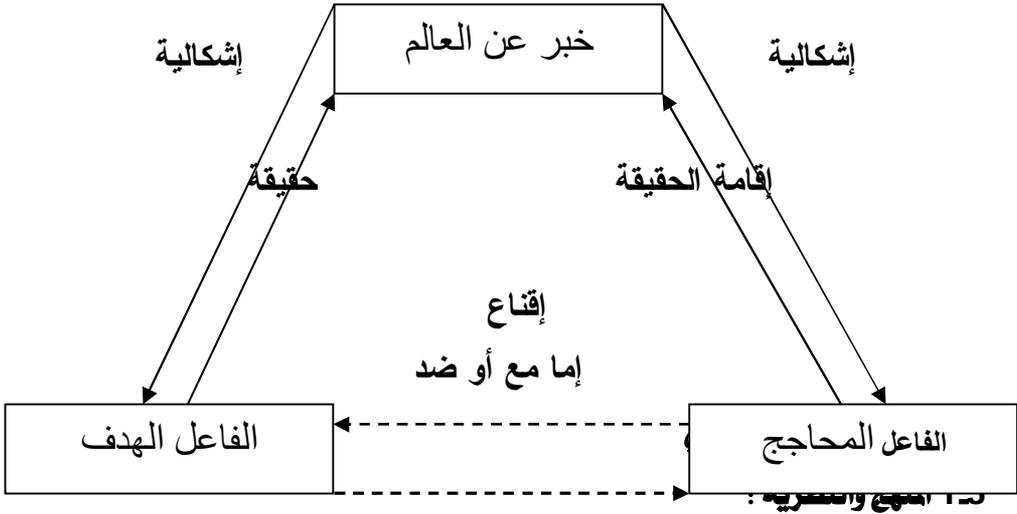
• فاعل آخر مهتم بالخبر نفسه؛ إشكالية وحقيقة، هو الذي يشكل هدف الحجاج؛ فيتوجه إليه الفاعل المحاجج على أمل استدراجه نحو مقاسمة الحقيقة نفسها (الإقناع) فيتمخض من ذلك (أن يكون مع) أو (أن يكون ضد).⁽²⁾ ووفقا لهذا يتحدد الحجاج من خلال علاقة ثلاثية بين (فاعل محاجج) و(خبر عن العالم) و(فاعل هدف). ويمكن تجسيد هذه العلاقة في الترسيم التالية⁽³⁾:

(1) Ch. Perelman، Olbrechts Tyteca *Traité de L' argumentation*، Presses universitaires de Lyon (1981)، p92.

(2) ينظر: باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، عن كتاب نحو المعنى والمبنى، ترجمة أحمد الوردني،

ط 01، دار الكتاب الجديد، بيروت - لبنان، 2009، ص (10-16).

(3) المرجع نفسه ص 14.



إنه وبالعودة إلى مفهوم الحجاج وما حواه من أبعاد، ومن منطلق أن الحجاج ممارسة، نجد أن للخطاب الحجاجي ثلاثة مكونات كبرى هي: المكون السياقي/الثقافي، والمكون المنطقي، والمكون اللغوي. وبدهيا أن هذه المكونات لا توجد في صورة مفككة، خالية من أي نظام يجمعها، أو بناء يؤالف بينها، إذ تسري علاقات التأثير بين هذه المكونات الثلاثة سريانا طبيعيا و لازما، يتخذ فيه المكون المنطقي وظيفة الربط والانسجام، بين المكون السياقي والمكون اللغوي. (1)

وعليه فإن ثلاث اتجاهات يمكن أن تستجيب بشكل فعال من أجل تحليل بنية الخطاب الحجاجي، وتقف معه لتكشف عن خصوصية تلك البنية، وتتناول الحجاج باعتباره يشكل تفاعلا، وهذه الثلاثة يمثلها ثلاثة أقطاب تفر

(1) ينظر: الشهري عبد الهادي بن ظافر، آليات الحجاج وأدواته، ضمن: لحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة تنظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم حافظ اسماعيل علوي، ج 1 (الحجاج : حدود وتعريفات)، ط 01، عالم الكتب الحديث، إربد، 2010، ص76.

بأنه ينبغي أن يحلل كل حجاج حسب مقاييس تتعلق بالأشياء وباللغة وبالتفاعل⁽¹⁾ وهو ما يجعل الحجاج إما:

1/ يعالج أشياء وعلاقات بين الأشياء؛ من قبيل السببية، والقياس، و التعريف؛ مما يمنح الخطاب الحجاجي -حينئذ- الصبغة المنطقية.

2/ يخضع لإكراهات اللغة التي يتجلى فيها، وهي التي تكسب الخطاب الحجاجي ماهيته اللغوية.

3/ إجراء تفاعلي، يهتم ببنية التفاعل، واقتسام الملفوظات، وغير ذلك مما يبرز البعد التداولي لخطاب الحجاجي.⁽²⁾

هذا، ومن أجل دراسة ناجعة، قد يبدو من الضروري دعم المنهج ببعض المفاهيم النظرية، التي توفرها بعض النظريات الحجاجية، وهو ما سيدرج توازيا مع الدراسة التطبيقية .

3-2 الدراسة التحليلية للبنية الحجاجية للخطاب القدسي:

يقوم هذا التحليل على دراسة البنية الحجاجية للأحاديث القدسية وفق ثلاثة مستويات؛ المستوى المنطقي، والمستوى اللغوي، والمستوى التداولي.

3-2-1 المستوى المنطقي:

ويضم هذا المستوى عدة أليات منطقية وشبه منطقية، أهمها ما يلي:

3-2-1-1 الآليات المنطقية :

إن الوسائل المنطقية في بناء الخطاب الحجاجي متعددة، إلا أن القياس المنطقي، والقياس المضمر، هما الشكلان المنطقيان الأعم في الخطاب

(1) بلانتان كريستيان، الحجاج، ترجمة المهيري عبد القادر، مراجعة عبد الله صولة، د ط، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2009، ص 68.

(2) ينظر: بلانتان كريستيان مرجع سابق ص 68-69..

الحجاجي العربي⁽¹⁾. ويتحدد مفهوم كل واحد منهما في الدراسات الحجاجية كما يلي:

أ- القياس المنطقي:

والقياس لغة: هو التمثيل والتشبيه، والقياس المنطقي بنية أساسية في كل خطاب حجاجي" وهو فعلا خطاب متكون من ثلاثة ملفوظات (قضايا) بسيطة، وإحدى هذه القضايا أي: النتيجة، يستدل عليها بالقضيتين الأخريين أي: المقدمات، وتتضمن كلتا المقدمتين لفظا تشترك فيه مع الأخرى، ولفظا مشتركا مع النتيجة⁽²⁾. "ويمكن أن نحلل هذه البنية إلى ثلاثة أقوال : الأول المقدمة المنطقية الكبرى major premise، والثاني المقدمة المنطقية الصغرى minor premise، والثالث النتيجة conclusion...، ولا بد لبناء قياس منطقي من وجود تعلق دلالي منطقي بين الأقوال الثلاثة... [تمكن من تحقيق] وظيفة القياس المنطقي في الخطاب الحجاجي، وهي الانتقال مما هو مسلم به عند المخاطب أي: المقدمة الكبرى، إلى ما هو مشكل أي: إلى النتيجة⁽³⁾. ومعنى هذا أن المقدمة الكبرى هي أساس القياس؛ ففسادها أو الاعتراض على قبولها، يصير الحجاج عديم الجدوى، عقيم النتيجة⁽⁴⁾.

ب- القياس المضمّر: Enthymème

(1) ينظر: العبد محمد، النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاته، الجزء الرابع، ص 28.

(2) بلانتان كريستيان، الحجاج، م س، ص 54.

(3) محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ط1، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة-مصر، 2004 ص 219.

(4) المرجع نفسه، ص ن.

وهو أحد أنواع القياس المنطقي ويعرفه "الطوسي" بقوله: " والضمير قياس محذوف الكبرى، كما يقال: "فلان يطوف ليلاً، فهو لص"، وحذفها للإيجاز أو المغالطة⁽¹⁾.

ولا يكون السبيل إلى معرفة المقدمة الكبرى إلا بالاستنباط وبالحذف، ويسلم بها جدلاً. ومن هنا قد يبدو أن القياس المضمّر يحتاج إلى إعمال نظر، وإجالة فكر؛ للوقوف على العلاقة بين الحجج المولدة للنتيجة، لكن مهما يكون الجهد المبذول في ذلك فهو أقل مما في القياس المتدرج (المركب).

ج- القياس المتدرج(المركب):

ويسميه المناطق العرب القياس المركب، ويعرفه الطوسي بقوله: "القياسات المركبة هي قياسات جعلت نتائج بعضها مقدمات للبعض، وهي أمّا مفصولة محذوفة النتائج - إلاّ الأخيرة - كقولنا: " كل إنسان حيوان، وكل حيوان نام، وكل نام جسم، فكل إنسان جسم ". أو موصولة وهي موردة النتائج والمقدمات بتمامها"⁽²⁾.

في الواقع ومهما عُدّ القياس المتدرج معقداً، فإنه يبقى بسيطاً إذا ما وضع في مقابل نموذج "تولمين" الحجاجي الموضح في ما يلي:

د- نموذج تولمين Toulmin:

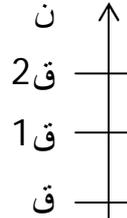
إن الحجاج عند تولمين هو شكل من أشكال التفكير، أشمل وأعقد من القياس الأرسطي يتجاوز حدود كونه علماً صورياً، ليكون علماً تطبيقياً، يمكن أن يشمل الخطابات العادية والمناقشات اليومية، ويعود اشتهاً نظرية تولمين

(1) الطوسي نصير الدين، تجريد المنطق، ط 1، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، 1988، ص50.

(2) الطوسي نصير الدين، م س، ص47.

الحجاج في تدافع الحجج وترتيبها بحسب قوتها، إذ لا يثبت غالبا، إلا الحجة التي تفرض ذاتها على أنها أقوى الحجج على الإطلاق"⁽¹⁾، وبعبارة أخرى يمثل السلم الحجاجي "علاقة ترتيبية للحجج"⁽²⁾، بحيث "حين توجه علاقة ترتيب أو قوة [العناصر الموجودة داخل] قسم حجاجي سنقول إن الحُجَج تنتمي إلى سُلْم حجاجي واحد ... فالسلم الحجاجي هو إذن قسم حجاجي موجه"⁽³⁾.

ونحن نمثل للسلم الحجاجي بواسطة النتيجة ن، والحجتين ق، ق1، ق2 التي تستجيب ثلاثتها لتعريف القوة الحجاجية على النحو التالي:



"ق" و "ق1" و "ق2" حجج وأدلة تخدم النتيجة ن.

إن السلم الحجاجي فئة حجاجية موجهة، يصور عمل المحاجة بأنه "تلازم بين الخطاب الحجاجي ونتيجته، إلا أن الخطاب الحجاجي والنتيجة في تلازمها تعكس تعددا للحجة في مقابل النتيجة الواحدة، على أن هناك تفاوتاً من

(1) الشهري عبد الهادي بن ظافر، أليات الحجاج وأدواته، م س، ص 95

(2) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ط1، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب 2006م، ص 20.

(3) جاك موشر و أن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة و الباحثين من الجامعات التونسية، إشراف عز الدين المجدوب، مراجعة خالد ميلاد، ج 1، ط 2، دار سناترا المركز الوطني للترجمة - تونس، 2010، ص 298.

حيث القوة، فيما يخص بناء هذه الحجج، كما أن الحجج قد تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة، تؤدي إلى نتيجة ضمنية واحدة" (1)

نماذج تطبيقية:

إنه إذا رجعنا إلى الأحاديث القدسية محل الدراسة، وقاربناها بوساطة الآليات السالفة الذكر، نجدها تستجيب بشكل سلس للتحليل الحجاجي، في مستواه المنطقي، وشبه المنطقي؛ ولعل النماذج التالية تقصح عن تلك الديناميكية، والفعالية الحجاجية.

النموذج 1:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((يَقُولُ اللَّهُ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَلَمْ يَعْمَلَهَا فَكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ)). (2)

في هذا الحديث بيان لقضية مهمة ومركزية في حياة المسلم، وهي الحسنة والسيئة، وما يقابلها من مفاهيم مكافئة مثل: الأجر والوزر، المعروف والمنكر، الصالح والظالم، وغير ذلك. والحديث للوهلة الأولى يبدو مباشراً، يقرر كيفية كتابة الحسنات والسيئات، كما عنون له المصنف (3). إلا أنه ينطوي على فعل حجاجي يهدف إلى ترسيخ العقيدة الصحيحة حول الحسنة والسيئة،

(1) ينظر: بلقاسم دفة، "استراتيجيات الخطاب الحجاجي"، مجلة: أبحاث في اللغة والأدب العربي، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد 10، 2014، ص 503.

(2) أخرجه البخاري، ح 7501 ومسلم، ح 394.

(3) ينظر: الأحاديث القدسية من الصحيحين وكتب الألباني، جمع وإعداد سعد عبد الغفار علي، ط 1، دار نور الكتاب، الجزائر، 2010، ص 27.

لا بالمفهوم السطحي؛ الأجر على قدر العمل، بل باستحضار جلاله الرب الشاكر الشكور والعمو الغفور، والعمل على وفق تلك المعاني المستحضرة، التي سيقف لدعمها عدد من الحجج مرتبة من الأدنى إلى الأعلى، ومن الأقل قوة إلى الأقوى. تظهر عبر السلمين الحجاجيين التاليين:

ق1: نية فعل السيئة لا وزر معها إن لم تفعل.

ق2: السيئة إذا فعلت، وزرها واحد بغير مضاعفة.

ق3: السيئة إذا ترك فعلها الله انقلبت حسنة.

ن: رفق الله بعبده المسيء؛ لكي يرجع عن إساءته ولا ييأس.

ن: رفق الله بعبده المسيء لكي يرجع عن إساءته لا

ييأس

ق3: السيئة إذا ترك فعلها الله انقلبت حسنة.

ق2: السيئة إذا فعلت، وزرها واحد بغير مضاعفة.

ق1: نية فعل السيئة لا وزر معها إن لم تفعل.

ق1: نية الحسنة حسنة مثلها.

ق2: فعل الحسنة حسنات مضاعفة

ن: إن لم تفعل الحسنة فلا تترك نيتها.

ن: إن لم تفعل الحسنة فلا تترك نيتها.

ق2: فعل الحسنة حسنات مضاعفة

ق1: نية الحسنة حسنة مثلها.

ومفاد هذين السلمين بيان حقيقة الحسنة والسيئة، من جهة ميزانهما عند الإله سبحانه وتعالى، فإنه لما كانت السيئة قبيحة مستكرهة في العقول الصريحة، والفطر السليمة، عوملت على قدرها، فلم يرفع لها شأن في جنب

عبودية العبد وربوبية الرب، فكان فعلها و وزرها سواء، على قدر الفعل يكون الوزر، بل تركها أجر لأن ترك القبيح بعد نية فعله، فعل حسن من جهة مسح آثار قبحه، أما الحسنة فمستطابه مستحسنة، فمن نواها أجر لأنه لامس الطيب بعقله، ومن فعلها ضوعف له أجره لأنه شارك في الطيب كثير من أركان وأعضاء بدنه وروحه، وعلى قدر ما يعلم الله من صدقه تكون المضاعفة .

وفضلا عن السلمية الحجاجية المبينة، فإن الحديث يحتاج بصورة أخرى، عبر القياس المضمّر، حجاجا ينبنى على النتائج المحققة بواسطة السلم الحجاجي، هذا القياس المضمّر، هدفه المحاججة لقضية عقدية أخرى، متداولة عند المسلمين، هي سعة رحمة الله ومغفرته، وعظيم فضله وجوده، ومهما كانت القضية معروفة، فالحجاج حينها ليس لإثباتها، بل لاستثارة العمل بمقتضاها. وقد انبنى هذا الحجاج على الآتي:

- مقدمة كبرى مضمرة: لا يجازي على القليل الكثير، وعلى البسيط العظيم، إلا سيد جواد كريم، شاکر شکور.
- مقدمة صغرى: الله يضاعف الحسنات ويجازي فيها حتى على النيات.
- نتيجة: الله هو السيد الجود الكريم، الشاکر الشکور.

- ويوازي هذا القياس المضمّر قياس مضمّر ثانٍ كما يلي :
- مقدمة كبرى مضمرة: لا يؤاخذ بنية الشر، ولا يعاقب عليه إلا بمثله ، ويجازي تاركة لوجهه إلا عزيز عدل، وغني ذو فضل.
- مقدمة صغرى: الله يعفو عن نية السوء، ولا يعاقب عن فعل السوء إلا بمثله، ويبدّل تاركة أجرا من عنده .
- نتيجة: الله حكم عزيز عدل، غني ذو الفضل .

وبالتالي يكون الحديث مندرج ومندمج في سلسلة من العمليات الحجاجية التي تسعى لتحقيق القوة الإنجازية لعقيدة الأسماء و الصفات، وبيان لأحد وجوه تطبيقاتها العملية، التي تجعل من مجرد معلومة متداولة انفعال في القلب، يتبعه عمل من الجوارح تركا أو فعلا. وحينها يكون هذا الحديث القدسي ذو بعد تداولي.

2- النموذج الثاني:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَنَّه ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ سَلَفَ - أَوْ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ - قَالَ كَلِمَةً يَعْنِي أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا وَوَلَدًا فَلَمَّا حَضَرَتُ الْوَفَاةُ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيُّ أَبٍ كُنْتُمْ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ. قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَسِرْ⁽¹⁾ - أَوْ لَمْ يَبْتَسِرْ - عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا، وَإِنْ يَقْدِرُ اللَّهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبُهُ، فَانظُرُوا إِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحَمًّا فَاسْحُقُونِي - أَوْ قَالَ: فَاسْلُونِي - فَإِذَا كَانَ يَوْمُ رِيحٍ عَاصِفٍ فَأَذْرُونِي فِيهَا) فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَأَخَذَ مَوَائِقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي فَفَعَلُوا ثُمَّ أَدْرَوْهُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كُنْ. فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ قَالَ اللَّهُ: أَيُّ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتِكَ - أَوْ فَرَقَ مِنْكَ - قَالَ: فَمَا تَلَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ عِنْدَهَا) وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: (فَمَا تَلَفَاهُ غَيْرُهَا)⁽²⁾.

في هذا الحديث وصية من رجل لأبنائه يأخذ عليهم العهد أن ينفذوها، والوصية من منطلق أنها وصية فهي حجة للتنفيذ بنفسها، لكن ما حوته هذه الوصية من أمر بغير مألوف ولا معروف، جعلتها تحمل حُجْجًا تخدم ضعف

(1) يبتسر قال أبو عبيد أي لم يقدم يقال بارت الشيء وابتأرته إذا خبأته ومنه سميت الحفرة البؤرة (أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، حقيق : علي حسين البواب، ط، ج 1، دار الوطن - الرياض - 1418هـ - 1997م، ص791)

(2) أخرجه البخاري، ح 6481، ومسلم، ح 7160.

تنفيذها، وليضمن الرجل الموصي تنفيذها، ساق لها حزمة من الحجج تؤكد حتمية التنفيذ. تراوحت بين القياس، والقياس المضمر، و السلم الحجاجي. شكات كلها البنية الحجاجية لهذا الحديث، وبيانها كما يلي.

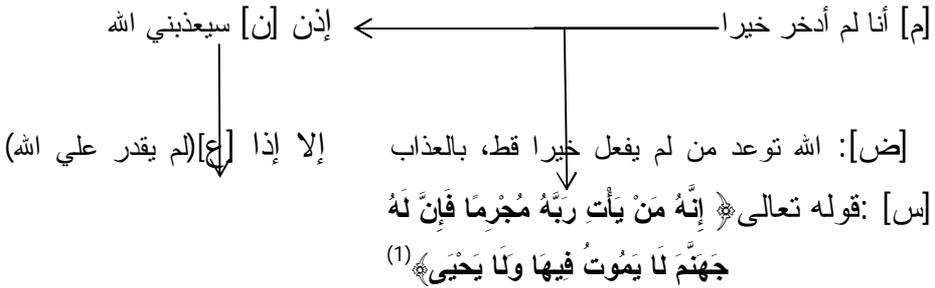
- قياس مضمر استهل به الرجل سلسلة العمليات الحجاجية، صورته:

- مقدمة كبرى مضمر : من عصى الله وبارزه بالمعاصي ولم يفعل خيرا عذبه الله.

- مقدمة صغرى: أنا ليس لي خير أذخره.

- نتيجة: سيعذبني الله .

وبعد الاستثناء الضمني، الذي قدره الرجل بحسب اعتقاده، أن الله لا يعذب إلا من قدر عليهم. يصير القياس المضمر في مرحلة تالية، حسب نموذج تولمين كما يلي:



ومن أجل انتفاء النتيجة [ن] لا بد أن يتحقق الاعتراض [ع]، وهو ما سعى إليه الرجل من خلال وصيته، ويبدو أنه بنى هدفه على قياس مضمر، ومغالطي، ومنتدرج في أن واحد، والقياس المغالطي كما يعرفه كريستيان

(1) سورة طه الآية (74) .

بلانتان هو "حجاج (استدلال) غير صحيح يشبه شكل القياس الصحيح" (1) وفيما يلي صورة هذا القياس:

مقدمة كبرى: الله ملك.

مقدمة صغرى مضمرة: الملوك مهما بلغت عظمتهم فهم مثل عبيدهم وخدمهم.

النتيجة: الله مثل عبيده (الإنس والجن)،

ثم تصير هذه النتيجة (المغلوطة) مقدمة صغرى لقياس آخر، مقدمته الكبرى هي: من انتفى أثره فصار ذرات، وشتت جمعه في مساحات شاسعات، فلا يقدر على جمعه لا الإنس ولا الجن ولا كل المخلوقات، فذلك من المعجزات؛ فتكون النتيجة: الله مثل خلقه لن يقدر على جمعه.

ولعله واضح أن مكن المغالطة، هو قياس الخالق على خلقه، غير أن الله ليس كمثلته شيء؛ فما لا يقدر عليه العبد، يقدر عليه الله؛ وما يعجز الخلق لا يعجز الخالق.

ومع هذا فإن الرجل رسم سلما حجاجيا لتحقيق الشرط الأساس في بناء هذا القياس، الذي هو تحقيق انتفاء أثر الرجل بعد موته ودروس صورته، وتشتت ذرات جسمه. وبالتالي يصير هذا الشرط نتيجة لمجموعة حجج تتصاعد نحو تحقيق هذه النتيجة، ومنه توفر الشرط ضمنيا. كما يلي:

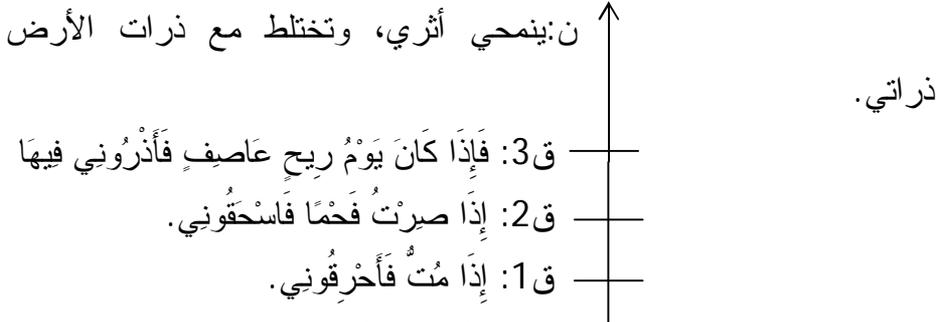
ق1: إِذَا مُتْ فَأَحْرَقُونِي.

ق2: إِذَا صِرْتُ فَحَمًّا فَاسْحَقُونِي.

ق3: فَإِذَا كَانَ يَوْمٌ رِيحٍ عَاصِفٍ فَأَذْرُونِي فِيهَا.

(1) بلانتان كريستيان، الحجاج، م س، ص42.

النتيجة ن:ينمحي أثري، وتختلط مع ذرات الأرض ذراتي.



ومع ما يبدو من سخافة فعل الرجل، بل من سوء تقديره لقدرة ربه، إلا أنه لقي من خالقه المغفرة، كفلها له بعد رحمة ربه، كونها نتيجة لبنية حاججية سليمة، بيانها وفق نموذج "تولمين" كالاتي:



[س] قول الرسول صلى الله عليه وسلم يروي عن ربه جل وعلا
قال :

(وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين إذا خافني)

في الدنيا أمنته يوم القيامة إذا أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة (1)

وبتأمل ما سبق تكون البنية الحاججية لهذا الحديث القدسي متشكلة عن تناوب في صور الحجاج، يحدده الانسجام والتناسق بين منطلق الحجاج، وهدفه، وبين طبيعة الحجج و مقام إنتاج الخطاب. وعيله كانت البنية

(1) ابن حبان محمد بن أحمد البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، ط 2، ج 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، ح 640، ص 406.

المدرسة بنية تفاعلية؛ داخليا على مستوى الفعل الحجاجي، وخارجيا على مستوى الذات المتخاطبة، مما أكسبتها قوة إنجازية انتهت بتحقيق هدف الحجاج وأثره، عبر نجاة الرجل من العذاب وحظوته برحمة الرب الكريم.

2-2-3 المستوى اللغوي والتداولي:

تشكل البنية اللغوية للخطاب وما تنطوي عليه من بعد تداولي، مرتكز كل مقاربة؛ وقاعدة تتطلق منها وتتأسس عليها أي دراسة تشكل اللغة الطبيعية مادة بحثها، ومن أجل إحاطة أكبر بالبنية اللغوية للحجاج في الأحاديث القدسية، سنتسلط الدراسة على الأدوات اللغوية الصرفة، وعلى تلك المندرجة ضمن الأفعال اللغوية (الأفعال الكلامية).

3-2-2-1 لأدوات اللغوية :

وفي صدارة هذه الأدوات تأتي:

أ- الروابط والعوامل الحجاجية:

وهي أدوات تحويها كل اللغات مرتبطة بوظيفتها، ومتصلة ببنية خطاباتها، بناء وتوجيهها، لا سيما ما تستدعيه السمة التفاعلية للغة، ووظيفتها الحجاجية بوجه أخص، إذ " لما كانت للغة وظيفة حجاجية، وكانت التسلسلات الخطابية محددة بواسطة بنية الأقوال اللغوية، وبواسطة العناصر، والمواد التي تم تشغيلها"⁽¹⁾، كان اشتمال اللغات الطبيعية على مؤشرات لغوية خاصة بالحجاج أمرا يندرج تحت فلسفة اللغة، ذات البعد الحجاجي، المندرج فيها ضمنا وبصفة جوهرية.

(1) العزاوي أبو بكر، اللغة والحجاج، ص26

وتعد الوظيفة المحورية للروابط الحجاجية، دخولها في إطار كيفية تجاوز مضمون الخطاب الثابت ، حيث لا تكفي بنظام اللغة في الخطاب والتواصل فقط ، وإنما تفرض قيودا دلالية على التأويل⁽¹⁾.

ومن هذه الروابط التي يلتبس دورها الحجاجي مع وظيفتها النحوية التقليدية، يمثل الواو مثالا بيّنا على ذلك. فما دوره في بناء الحجاج في الأحاديث القدسية؟

• الواو بوصفه رابطا وعاملا حجاجيا:

اختلف العلماء في الواو العاطفة على ماذا تدل، ولهم في ذلك أقوال أهمها:
القول الأول: أنها تدل على مطلق الجمع من غير إشعار بخصوصية المعية، أو الترتيب، ومعنى ذلك أنها تدل على التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الذي أسند إليهما... وهذا قول الجمهور من أئمة العربية والأصول والفقهاء.
والقول الثاني: أنها للترتيب مطلقا، سواء كانت عاطفة في المفردات، أو في الجمل. وهو قول بعض الكوفيين⁽²⁾.

وسواء كانت دلالة الواو على الجمع والاشترک، أو على الترتيب؛ فهي في كلِّ تمت بصلة وثيقة إلى الاستراتيجية الحجاجية. وتحديدًا إلى "تعريف القسم الحجاجي، ومقولة الاشتراك في الحجج الموصلة إلى حكم واحد، ألا وهو النتيجة"⁽³⁾، وحتى نستجلي دور الواو في بناء الحجاج، وتوجيه السلمية الحجاجية نتناول المثال التالي: **عَنْ أَبِي ذَرٍّ (عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللهِ -تَبَارَكَ**

(1) ينظر : عشير عبد السلام ، عندما نتواصل نغير ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، ط1 ، 2006 ، ص82

(2) صلاح الدين أبو سعيد خليل العلاني، الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ط1، دار البشير -عمان، 1990، ص67-68.

(3) الناجح عز الدين، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ط1، مكتبة علاء الدين، صفاقس-تونس، 2011، ص153.

وَتَعَالَى - أَنَّهُ قَالَ: ((يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، ...))

ن: فلا تظالموا

ق2: وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا

ق1: إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي

إن الواو هاهنا توفر للمفوضات خاصية الجمع والاشتراك، فتكون في قسم حجاجي واحد، كما تضي عليها طابع الترتيب، وبالتالي توجهها نحو النتيجة المستهدفة في هذه البنية الحجاجية متمثلة في ترك الظلم، خلُقًا في النفس، ومعاملةً به للغير، وذلك عبر الصيغة الصرفية (تفاعل)، الدالة على حصول الفعل من أكثر من طرف، مع اتصاف كل طرف بها. لذا؛ كان على الحجج المتكفلة بضمان هذه النتيجة، أن تكون مرتبة في هذا الاتجاه، فكان هذا الترتيب ترتيبين:

الأول - البدء بتحريم الظلم على واحد (رب العزة جل جلاله) ثم انتقال عبر الواو إلى تحريمه على جمع (معشر البشر)، فكانت الحجة الأقوى دلالةً على وقوع الاشتراك هي السابقة للنتيجة فناسبتها.

الثاني - البدء بتحريم الظلم على عظيم منزله (رب العزة جل جلاله)، ثم الانتقال عبر الواو إلى تحريمه على حقير متهم (معشر البشر)، وهنا قد يبدو الترتيب معكوساً من الأعلى إلى الأسفل فلا يكون متناسباً مع الترتيب الأول، لكن الترتيب هنا راع الأنسب لغرض الخطاب وهو التحريم، والتحريم سلب، وفي المعاني السالبة يكون الترتيب عكسي.

ثم إنّ الترك والتضحية يتقدم فيه النبيل على من دونه، فيتقدم الغني على الفقير في انفاق المال، ويتقدم الشجاع على المتردد في القتال، ويتقدم القوي القادر في الحلم والعمو، على الضعيف المهضوم، وهكذا في كل ما من شأنه الترك والتنازل والقبول بالضييق والاصطبار، وعلى هذا يتأسس مفهوم القدوة، والله المثل الأعلى، فتحريم الظلم على نفسه وهو الحكم العدل، يجعله أكد على العباد الذين من شأنهم الجور والتعدي، وهكذا يتناسب ترتيب هذه الحجج في الحالتين مع النتيجة (ترك النظام).

ب- ألفاظ التعليل:

التعليل هو "أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع، أو متوقع، فيقدم قبل ذكره علة وقوعه، لكون رتبة العلة تتقدم على المعلول كما في قول البحري:

(وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاخِطًا لَمْ أَكُنْ *** أَدُمُّ الزَّمَانَ، وَأَشْكُو الْخُطُوبَا) (1)

فوجود سخط الممدوح هو علة في شكوى الشاعر (2)

ومن جهة البعد الحجاجي "تعد ألفاظ التعليل من الأدوات اللغوية التي يستعملها المرسل لتكوين خطابه الحجاجي، وبناء حججه فيه، ومنها: المفعول لأجله، وكلمة السبب، ولأن. إذ لا يستعمل المرسل أي أداة من هذه الأدوات، إلا تبريرا أو تعليلا لفعله، بناء على سؤال ملفوظ به أو مفترض (3)

وليكن المفعول لأجله النموذج التطبيقي لحجاجية ألفاظ التعليل في الأحاديث القدسية.

(1) ديوان البحري، مطلع القلوبية، بالسلام بنانا خضريلو الخطا يشدوق الفواد الطروبا.

(2) الحموي تقي الدين، خزنة الأدب وغاية الأرب، ط 1، ج 2، دار ومكتبة الهلال - بيروت، 1987، ص 391.

(3) الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب- مقارنة لغوية تداولية -، ط 2، ج 2، دار كنوز المعرفة، الأردن، 2015، ص 259.

المفعول لأجله هو "المصدر الذي يدل على سبب ما قبله (أي: بيان علته)"⁽¹⁾. وفي الحديث الآتي يأتي المفعول لأجله مصدرا مجردا من أل هو: (رغبة) و (شفقة). جاء عن ابن مسعود. عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((عَجِبَ رَبُّنَا -عَزَّ وَجَلَّ- مِنْ رَجُلَيْنِ، رَجُلٌ ثَارَ عَنْ وَطْأَنِهِ وَحِافِهِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحَبِيهِ إِلَى صَلَاتِهِ فَيَقُولُ رَبُّنَا: أَيَا مَلَأَكْتِي أَنْظُرُوا إِلَى عَبْدِي ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطْأَنِهِ وَمِنْ بَيْنِ حَبِيهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ؛ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، وَرَجُلٌ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَانْهَزَمُوا فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْفِرَارِ وَمَا لَهُ فِي الرَّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيْقَ دَمُهُ؛ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، فَيَقُولُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لِمَلَأَكْتِهِ: انظُرُوا إِلَى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أُهْرِيْقَ دَمُهُ))⁽²⁾.

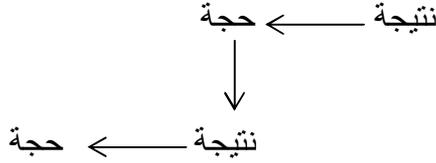
في هذا السياق يضطلع المفعول لأجله بدور الحجاج لفعل الرجلين، الأول الذي ثَارَ عَنْ وَطْأَنِهِ وَحِافِهِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحَبِيهِ إِلَى صَلَاتِهِ، والثاني الذي غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَانْهَزَمُوا فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْفِرَارِ وَمَا لَهُ فِي الرَّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيْقَ دَمُهُ. وكلا الرجلين أتى بعمل فيه من مجاهدة النفس، ومخالفة الهوى، ومغالبة العادة، ومكابدة المشقة، قدرا هائلا، جعل التحمل المقرون ضمنيا بالاندفاع شوقا وتطلعا لما عند الله، يستدعي التنصيص على علته.

هذه العلة، في الواقع تلبس صورة الحجة الدافعة لأي اعتراض، أو انكار، أو شك حول واقعية فعلي الرجلين، وجدواهما. فكان الحجاج ببيان جهة المفعول لأجله مناسبا. بل وأهل مجموع الفعل والمفعول لأجله، ليكون حجة

(1) عباس حسن: النحو الوافي، ج 2، ط 15، دار المعارف، دت، ص 237.

(2) رواه ابن حبان في صحيحه، باب النوافل، ح 2557.

للنتيجة مطلع الملفوظ، و هي عجب الرب سبحانه وتعالى. مما يتيح توضيح البنية الحجاجية لهذا الملفوظ كما يلي:



فبنية الحجاج في هذه الحالة هو ما يسمى بالوحدة الحجاجية الكبرى، المبنية وفق تسلسل نتيجة ،حجة/نتيجة، حجة/نتيجة... أين تتحول الحجة الوسيطة إلى نتيجة وسيطة⁽¹⁾، كما في المثال المدروس حيث استدعت النتيجة(عجب الرب سبحانه) حجة (فعل الرجلين) التي تحولت إلى نتيجة استدعت حجة لها هي(الرغبة فيما عند الله، وشفقة مما عنده).

ج.- الحجاجية المعجمية :

يوجد في اللغة كلمات كثيرة ذات مقتضى معجمي تحمله في ذاتها، ولا دخل للسياق فيه بل هي التي من شأنها أن تؤثر في السياق، وتسمه بميسم دلالي وحجاجي خاص، سماه ديكرو وقع الكلمة المعنوي⁽²⁾، وفيما يلي تطبيق على الوحدة المعجمية (عبد)

• كلمة (عبدى أو عبادى)

لعل أهم الوحدات المعجمية الواردة في الأحاديث محل الدراسة هي(عبد)، وهي التي أمكنت من حصر دراسة الخطاب القدسي في عدد لا

(1) ينظر: كورنيليا فون رادسكوي، الحجاج في المقام المدرسي، تحت إشراف فريق البحث في البلاغة والحجاج برئاسة حمادي صمود، د ط، منشورات كلية الآداب منوبة، مجلد XXXIX، 2003، ص18.

(2) ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط 02، دار الفارابي، 2007، ص71 ص90.

يتجاوز أربعين حديثاً، تجمعهم كلهم تردد هذه الوحدة المعجمية -عبد- مسندة إلى ياء المتكلم، بل إلى ياء النسبة لتصبح (عبدي)، وقد تستعمل مع الجمع المخاطب فتكون (عبادي)، وهي نسبة تشریف و تكريم، على منوال بيت الله وناقاة الله، يخلعها المولى عزّ وجلّ على أهل عبادته وطاعته، وأهل التسليم بالعبودية له.

وبناء على هذا الملمح تمارس هذه الوحدة المعجمية دورها الحجاجي؛ من منطلق أن تصدير الخطاب بها نداء كما في "يا عبادي" أو توجيهها للخطاب إلى المتلقي موصوفاً بهذا النعت، وموسوماً بهذا الاسم (عبدي) يمنح ما يليه طاقة حجاجية، أساسها اختصاص المناادي المنادى بحرصه على نفعه، وإرشاده وتوجيهه لما فيه خيري الأولى والآخرة.

فإنه وضع كلمة (عبد) مقرونة بذكر أنبيائه في مقامات المدح، والتنويه بالذكر، وقد ألمع بل أفاض ابن قيم الجوزية إلى شرف النسبة إلى عبودية الله، وبين فضلها وميزتها فعقد فصلاً عنونه بـ: "فصل: والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه"⁽¹⁾ فقال: "ووصف أكرم خلقه عليه وأعلامه عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته ... فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه وفي مقام التحدي بأن ياتوا بمثله ... وفي مقام الدعوة إليه و... في مقام الإسراء ... وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده فقال تعالى فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه"⁽²⁾

(1) ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق محمد حامد الفقي، ط 2، ج 1، دار الكتاب العربي - بيروت، 1973، ص 102.

(2) م ن، ص 102-103.

وإلى هنا يكون اختيار لفظة عبدي أو عبادي، عاملا فاعلا في تهيئة المتلقي المسلم للاستماع، ثم هي بعد ذلك محفز فارق في تحقيق الاقتناع.

د- الأفعال اللغوية (الكلامية):

يرى (فان إيميرن وجروتندورست) أن الأفعال اللغوية تسهم بأدوار مختلفة في الحجاج، إذ يوظف كل منها بدور محدد في الحجاج بين طرفي الخطاب، وتترتب الأفعال حسب الاستعمال؛ ويمكن تلخيص أدوارها الحجاجية في الجدول التالي مع التمثيل من المدونة:

الفعل الكلامي	غرضه الإنجازي ⁽¹⁾	دوره الحجاجي ⁽²⁾	مثال	قوته الإنجازية
الإخباريات (التقريريات) Assertives	والغرض الإنجازي فيها هو نقل المتكلم واقعة ما من خلال قضية.	تشكل جزء من الحجاج المقدم للدفاع عن وجهة النظر كما تنشأ نتيجة النقاش	ماذا تُريدون؟ فيقولون: ربنا رضوانك، قال: يقول: <u>رضيت</u> <u>عنكم</u>	حصول كمال النعيم وتمام المنة والأمان من المنغصات.
التوجيهيات (الأمريات) Directives	غرضها الإنجازي محاولة المتكلم توجيه	تكتسب حجاجيتها إذا خرجت عن الأمر والنهي،	<u>فَاسْتَهْدُونِي</u> <u>أَهْدِكُمْ</u> ... <u>فَاسْتَطْعَمُونِي</u>	النصح والإرشاد والحظ على التعلق ببروبية الرب

(1) ينظر: مدور محمد، "نظرية الأفعال الكلامية بين التراث العربي والدراسات الحديثة"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، قسم اللغة العربية وآدابها، المركز الجامعي غرداية، ع 16، 2016. ص 51-52.

(2) ينظر: فرانز فان إيمان وروب غروتندورست، نظرية نسقية في الحجاج- المقاربة الذريعية الجدلية، ترجمة عبد المجيد جحفة، ط 1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2016، ص 82-87.

المخاطب إلى فعل شيء ما	نحو النصح أو التوصية مثلا.	أَطْعِمُكُمْ وَأُولُوهُنَّيْتَهُ.	
الوعديات (الالتزاميات) Commissive	قبول الحجاج أو عدم قبوله.	وَإِنْ سَأَلْتَنِي نَأْطِيتَهُ، وَكُنْ اسْتَعَاذَنِي نَأْعِيذَنَّهُ،	إشعار بالمعية والولاية لمن تقرب إلى الله و داوم.
التعبيريات (البوحيات) Expressives	ليس لها دور مباشر وهو لا يعني أنه ليس لها دور إيجابي أو سلبي	: أَيْكُمُ الْقَائِلُ كَلِمَةً كَذَا وَكَذَا... ((لَقَدْ ابْتَدَرَهَا اثنًا عَشَرَ مَلَكًا	الإعجاب والثناء، لإبراز الأسوة والدعوة إلى الاقتداء
الإعلانيات (الإيقاعيات) Declaratives	في مرحلة الحجاج قد تستخدم تصرحي العادة ضد القبول المسبق أو عدم قبول الحجة ...	وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ	الترغيب بمطلق الجزاء وجزيل العطاء لمن رفع إلى ربه الدعاء

ومع وجازة مضمون الجدول، فإنه تجدر الإشارة إلى ثراء المدونة بمواضع الحجاج بالفعل الكلامي، ولعل ذلك يعود إلى قرب المسافة المقامية⁽¹⁾

(1) والمقصود بها وضعية طرفي الخطاب بناء على بيئة التخاطب، وسياقه، التداولي والثقافي (ويدخل فيه التوافق الفكري والعقدي والاجتماعي)، وهي كلها عوامل تقارب على مستوى تداولية الخطاب، وإن تناعت مقامات الحضور الحسية .

بين المخاطب (الله جل جلاله) والخاطب العبد الباحث عن رضا ربه، وهو ما يؤكد تلاؤم بين بنية الخطاب وجهة إرساله.

الخاتمة ونتائج البحث

بعد ما مضى من عرض نظري لأدوات الدراسة التحليلية، وبعد كشف تطبيقي لتمثلات المنهج وآلياته، التي عالجت خطابا ذا صبغة دينية ، بدا ممكنا أن نذكر النتائج الآتية:

- الحديث القدسي، يعد خطابا تداوليا بامتياز، جعل تأويل الرسالة المتضمنة

فيه أمرا متاحا، لمتلقي يحوز ضروريات الدين، عقيدة وعبادة.

- وعلى الرغم من بنائه اللغوي المتاح الفهم ابتداء، فالحديث القدسي يخفي تحت فهمه الأولي مضمرات عقلية منطقية، وأخرى تداولية، تجعله خطابا مكثفا.

- وتأسيسا على هذه المضمرات، اكتسبت بنيته الحجاجية نشاطا ودينامية، ومن ثمة وضعت المتلقي في وضع متوازن تجاه العملية الإقناعية.

- حجاجية الخطاب القدسي، حجاجية حوارية، بعيدة عن التسلط، رغم أن الخطاب الديني يوصف بأنه خطاب ركيزة حجاجه الحجاج بالسلطة.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- 1- أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دط، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2001.
- 2- باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، عن كتاب نحو المعنى والمبنى، ترجمة أحمد الوردني. ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009.

- 3- بلانتان كريستيان، الحجاج، ترجمة المهيري عبد القادر، مراجعة عبد الله صولة، د ط، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس ، 2009.
- 4- بنور عبد الرزاق ، جدل حول الخطابة والحجاج، د ط ، دار العربية للكتاب، 2008.
- 5- جاك موشر وأن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين من الجامعات التونسية، إشراف عز الدين الجدوب، مراجعة خالد ميلاد، ج 1، ط 2، دار سناترا المركز الوطني للترجمة -تونس ، 2010.
- 6- ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق : علي حسين البواب، ط1، ج 1، دار الوطن - الرياض - 1418هـ - 1997م.
- 7- ابن حبان: محمد بن أحمد البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، ط 2، ج 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993.
- 8- الحموي تقي الدين ، خزنة الأدب وغاية الأرب، ط1، ج 2، دار ومكتبة الهلال - بيروت، 1987.
- 9- دفة بلقاسم ، "استراتيجيات الخطاب الحجاجي"، مجلة أبحاث في اللغة والأدب العربي، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد10، 2014.
- 10- ديوان البحري.
- 11- الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداولية-، ط 2، ج2، دار كنوز المعرفة، الأردن، 2015.
- 12- الشهري عبد الهادي بن ظافر، "أليات الحجاج وأدواته"، ضمن: لحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة تنظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم حافظ اسماعيل علوي، ج 1 (الحجاج : حدود وتعريفات)، ط 01، عالم الكتب الحديث، إربد، 2010.
- 13- صحيح الأحاديث القدسية من الصحيحين وكتب الألباني، جمع وإعداد سعد عبد الغفار علي، ط1، دار نور الكتاب، الجزائر، 2010.
- 14- صحيح البخاري.

- 15- صحيح مسلم.
- 16- صلاح الدين العلاتي، الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ط 1، دار البشير - عمان، 1990.
- 17- سولة عبد الله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط 02، دار الفارابي، 2007.
- 18- طروس محمد، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ط 1، عباس حسن: النحو الوافي، ج 2، ط 15، دار المعارف، د ت. النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2005.
- 19- الطوسي نصير الدين، تجريد المنطق، ط 1، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، 1988.
- 20- عشير عبد السلام ، عندما نتواصل نغير - مقارنة تداولية معرفية لأليات التواصل والحجاج - ، ط 2، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2012.
- 21- العبد محمد ، النص والخطاب والاتصال، ط 1، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة - مصر، 2004 .
- 22- العبد محمد. "النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع"، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاته.
- 23- العربي ربيعة، " الحد بين النص والخطاب "، علامات، العدد 33.
- 24- العزاوي أبو بكر، اللغة والحجاج، ط 1، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب 2006م
- 25- عمر بلخير، "مقدمات في الحجاج والنص"، د ط، منشورات مخبر الممارسات اللغوية، تيزي وزو، الجزائر، 2011.
- 26- ابن فارس أحمد بن زكريا بن الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979.

- 27- فرانز فان إيمران وروب غروتندورست، نظرية نسقية في الحجاج- المقاربة الذريعية الجدلية-، ترجمة عبد المجيد جحفة، ط 1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2016 .
- 28- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، ط 1، دار الحوار، اللاذقية، سورية، 2007م.
- 29- ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق محمد حامد الفقي، ط 2، ج 1، دار الكتاب العربي - بيروت، 1973 .
- 30- كورنيليا فون راد-صكوحى- ، الحجاج في المقام المدرسي، تحت إشراف فريق البحث في البلاغة و الحجاج برئاسة حمادي صمود، د ط، منشورات كلية الآداب منوبة، مجلد XXXIX، 2003،
- 31- مدور محمد، "نظرية الأفعال الكلامية بين التراث العربي والدراسات الحديثة"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، قسم اللغة العربية وآدابها، المركز الجامعي غرداية، ع 16، 2016.
- 32- ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت. دت.
- 33- الناجح عز الدين، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ط 1، مكتبة علاء الدين، صفاقس-تونس، 2011.

المراجع باللغة الأجنبية:

- 34) Ch. Perelman، Olbrechts Tyteca **Traité de L'argumentation**، Presses universitaire de Lyon (1981).
- 35) J. Dubois et al : **Dictionnaire de linguistique**. Imprimerie bergère ،Nancy-France، ed 1980